مقايسة العلوم. الميلاد الجديد لمحلل الخطاب الأدبي

قراءة في المشروع الفكري لمحمد مفتاح

حياة ذيبون

جامعة سطيف2

الملخص:

يتوخى هذا البحث بسط جزئية من مشروع محمد مفتاح تتعلق بالتثاقف المشروع بين أجناس المعرفة هذا التثاقف المعرفي - الذي امحت معه الحدود- سمح بهجرة المفاهيم والنظريات من حقل معرفي إلى آخر ، فأضحى محلل الخطاب الأدبي مطالبا بالانفتاح على شتى العلوم والمعارف دون استثناء بغية إثراء مفاهيمة وأدواته الإجرائية. وقد نحا المفكر المغربي محمد مفتاح هذا المنحى من خلال إحلال مشروع المقايسة بين العلوم بديلا منهجيا عن دعاوى التخصص والاستقلالية بين العلوم . فإلى أي مدى استطاع الناقد تمثل منجزات العلوم والإفادة منها في حقل الخطاب الأدبي ؟

Résumé:

Ce travail de recherche traite une partie du projet de Mehmed Meftah concernant l'acculturation cognitive entre les différents savoirs. Cet acculturation cognitive -qui a éliminé les frontières- a permit, aussi, la migration des concepts et des théories d'un champ de connaissance à un autre. L'analyste du discours littéraire réclame l'ouverture aux différentes sciences et connaissances sans exception afin d'enrichir les outils conceptuels et procéduraux. Le penseur marocain Mohamed Meftah a adopté cette approche en remplaçant le projet d'évaluation scientifique par une alternative systématique aux affirmations de spécialisation et d'indépendance entre la science. A quel point le critique peut-il représenter les réalisations de la science et en tirer profit dans le domaine du discours littérature ?

تمهيد:

يتوخى هذا البحث بسط جزئية من مشروع محمد مفتاح تتعلق بالتثاقف المشروع بين أجناس المعرفة هذا التثاقف المعرفي - الذي امحت معه الحدود- سمح بهجرة المفاهيم والنظريات من حقل معرفي إلى آخر. وما تداول مفاهيم من قبيل <<علم النفس البيولوجي، وعلم الاجتماع البيولوجي ، وعلم السيميوطيقا البيولوجي ،وعلم اللسان البيولوجي، وعلم الابستمولوجيا البيولوجي ...[1]>>إلا دليل واضح على موت نظرية الأنواع وتلاشي الحدود بين الاختصاصات، إذ لا يخفى على متبصر أن هذه

المفاهيم ما هي إلا ثمرة من ثمار التثاقف بين علم البيولوجيا وغيره من المعارف. ولا عجب بعد هذا إذا تداولت الدراسات في حقل المعرفة الأدبية مصطلح (بيولوجيا علم النص) .

وقد كانت النتيجة الحتمية لهذا التداخل/ التضافر المعرفي، استحالة تصنيف الباحثين في تخصص بعينه. وهو ما ينطبق على أعلام الحداثة <<فهذا ميشال فوكو ينتقل بين الفلسفة والتاريخ والعلوم الإنسانية دون أن ينسب إلى اتجاه بعينه، وهذا شأن دريدا أيضا، فهو يُنظر إليه كفيلسوف التفكيك في فرنسا، وكناقد أدبي في أمريكا، أو كناقد للتحليل النفسي أو اللسانيات المعاصرة أو حتى لفلسفة الحقوق والفكر السياسي في مناطق أخرى"[2] >>

أما الدوال فقد عرفت هي الأخرى – بفعل التداخل المعرفي – إزاحات جلية عن مدلولاتها. فالنص الذي كان يحيل على معنى النسيج باعتباره << نسجا من الكلمات[3] >> وأنه << سلسلة من ملفوظات لسانية تؤلف تعبيرا حقيقيا ، سواء أكان مكتوبا أم شفاهيا [4] >> اكتسب مدلولات جديدة بفعل إفادته من منجزات الحضارة المادية وما لفظته النظريات العلمية.ولا غرو بعد هذا أن يتداول المهتمون بتحليل الخطاب- وخصوصا بين من يتبنى نظرية دينامية النص - مفهوما جديدا للنص مغايرا عما ألفناه. فهو<< مشكل محتاج إلى حل، وعليه فإنه ينبغي أن يحل، ولكن لا على أساس التزامات باهظة الثمن قد يعجز الباحث في نهاية المطاف عن الوفاء بها، وهذه الوجهة من المقاربات هي التي سار

يدعو إليها كثير من الباحثين، وخصوصا الآخذين بإستراتيجية علم النفس المعرفي والذكاء الاصطناعي. هذه الإستراتيجية تعتمد على مفهوم أساسي وهو" القمة- القاعدة "أو" الإستراتيجية التنازلية ": أي وضع بعض الفروض العامة والبرهنة عليها، ولكن على أساس تجنب التفاصيل والالتزامات القاسية، أي مراعاة مبدأ أقل التزام أو مبدأ الإرجاء أو مبدأ استراتيجية الانتظار والرؤية [5]>>

وممما لا شك فيه أن تلقي النص مرهون بمفهوم النص،فأي خلخلة في النظام المفاهيمي تنجر عنها خلخلة في فعل التلقي، فبعدما كان التلقي مقصورا على السواد في البياض.أضحى – بفعل الثورة التكنولوجية والبرامج المعلوماتية ...- محكوما بسياقات/ روابط غير لغوية،إنها افتراضية في كثير من الأحيان.وفي هذا يقول محمد مفتاح: << الشعر مسرح إذا حضر المتلقي وعاين الشاعر المنشد، والشعر شريط إذا شاهده المتلقي، ولم يحضر الحفل، والشعر موسيقى غنائية أمام جمهور متحمس، والشعر تشكيل ورسم وهندسة ونحت، حينما يكون مسطورا على الصفحة، أو منقوشا على البناء، أو مرقوما على الثياب والأنسجة [6]>>

إنها دعوة لتعميق البحث في الدراسة الأدبية بإحلال مبدأ المقايسة بين العلوم منهجا. فالنص في النهاية نتاج عمليات فكرية، وبيولوجية، وفيزيائية، وباطنية، وظاهرية... مركبة.لهذا فبحوث النحاة والبلاغيين قاصرة عن تفسير العملية الإبداعية

تفسيرا شاملا. لهذا، ف<< توظيف المبادئ المشتركة المجردة بين الشعروغيره من الفنون، ومن العلوم [7]>> يصبح أمرا ضروريا << حتى لا تبقى أبحاثنا جزئية مقتصرة على أقوال النحاة والبلغاء، وعلى السواد في البياض؛ في حين أن المبادئ الإبداعية العميقة واحدة والعمليات الإنشائية تسبقها إرهاصات ومعاناة وحركات باطنية وظاهرية متشابهة". [8]>>

النظرية النقدية المعاصرة ومشروعية مقايسة العلوم

يشاع في حقل الدراسات النقدية المعاصرة مصطلحات جريئة ومستفزة من قبيل: (التضافر) و(العقد التضافري)، ويعد الناقد عبد السلام المسدي في مؤلفه الأدب وخطاب النقد من أبرز النقاد العرب الذين ناقشوا أطروحة التضافر المعرفي في حقل العلوم الإنسانية. فهل عرف الدرس النقدي في بداياته هذه الظاهرة ؟ أم أنها من بنات عصرنا المعاصر؟

إن المتتبع للدرس النقدي – منذ بداياته- يقف عند ملامح التضافر المعرفي بين النقد وغيره من العلوم. وقد وقف الناقد عبد السلام المسدي في مؤلفه الآنف الذكر [9] عند بعض تلك التقاطعات، فذكر أن النقد انفتح على الدرس الفلسفي وكانت الفلسفة جسر النقد إلى الأدب، وكان من ثمار هذا التقاطع أن أثرت الفلسفة مباحث الدرس الأدبي من أبواب عدة أبرزها، باب البلاغة، وباب الخطابة، باب البحث في القوى الناطقة والقوى المخيلة، وجاءته أيضا من نافذة علم الأخلاق عبر معيار المطابقة

بين اللغة والوجود بحثا عن خصائص القول الصادق وخصائص القول الكاذب.

وقد كان لفلاسفة الإسلام دور بارز في إثراء مباحث الدرس الأدبي بإخراج العمل الشعري والفني من دائرة التبعية للواقع ، ووضعه في دائرة التشكيل الفني، بحيث يصبح العمل الشعري مكتفيا بذاته، لا يتوقف على ما هو خارج عنه.وتعد هذه المباحث جوهر العملية النقدية حيث أفادت النقد العربي القديم أيما إفادة، وراح النقاد يبحثون جوهر العملية الإبداعية من جهات متعددة.

ويعد العصر العباسي عصر التضافر المعرفي بامتياز، فلم << تعرف الحياة الأدبية والعلمية عند العرب عهدا خصبا بالرجال والأفكار ومختلف الأمزجة، كما عرفت في صدر الدولة العباسية. فقد كان فيها ضروب شتى من البحوث؛ وقد كان فيها ولوع بالمعرفة ، وانصراف إلى العلوم والفنون في قوة وإيمان [10]>>

وقد كان للأدب نصيب وافر من هذا التطور؛ فظهرت النصوص الزهدية والخمرية والفلسفية ...وكذا ألوان البديع ،فكان على الحركة النقدية أن تواكب حداثة هذا النص . فنجد النقد – في هذه المرحلة – تخلى عن سمات الجزئية والبساطة والسذاجة، وصبغ بصبغة الفلسفة والمنطق.ومثال التضافر المعرفي بين المنطق والنقد في هذا العصر ما نجده من حديث عن أضرب الشعر. فإذا كان ابن قتيبة تدبر الشعر فوجده أربعة أضرب، فإن قدامة بن جعفر جعل للشعر ثمانية أضرب: <<الأربعة

المفـــردات البســـائط التـــي يـــدل عليهـــا حـــده، وهـــي اللفـــظ والـــوزن والتقفيـــة والمعنـــى؛ والأربعـــة التـــي رأى قدامـــة أنهـــا تتـــألف ممـــا ســـبق، وهـــي ائـــتلاف اللفـــظ مـــع المعنـــى، وائـــتلاف اللفـــظ مـــع الـــوزن، وائـــتلاف المعنـــى مـــع الـــوزن، وائـــتلاف المعنـــى مـــع القافيـــة [11]>> ولـــم يقـــف جهـــد قدامـــة عنـــد مجـــرد الجـــرد والإحصـــاء، بـــل تعـــداده إلـــى بحـــث شـــروط الجـــودة والـــرداءة فـــي كـــل ضـــرب. ف<<لكـــل ضـــرب صـــفات يكـــون بهـــا جيـــدا، وصـــفات يكـــون بهـــا رديئـــا متخلفـــا، وصـــفات تجمـــع بـــين الجيـــد والـــرديء. فللفـــظ نعـــوت وللـــوزن نعـــوت، وللقافيـــة وللمعـــاني مـــن المـــديح والهجـــاء والرثـــاء والنســـيب والوصـــف نعـــوت؛ ومـــن هـــذه النعـــوت الجيـــد، ومـــن هـــذه النعـــوت الـــرديء. ويمضـــي قدامـــة فـــي البحـــث فيـــذكر متـــى يحســـن ائـــتلاف المعنـــى مـــع الـــوزن ومتـــى يعـــاب؛ ومتـــى يحســـن ائـــتلاف اللفـــظ مـــع الـــوزن ومتـــى يعـــاب؛ وهكـــذا. فـــاللفظ يحســـن إذا كـــان ســـمحا ســـهل مخـــارج الحـــروف، ويقـــبح إذا جـــرى علـــى غيـــر ســـبيل اللغـــة والإعـــراب. ويحســـن ائـــتلاف اللفـــظ مـــع الـــوزن إذا كانـــت الكلمـــات فـــي الشـــعر تامـــة لـــم يحمـــل الـــوزن علـــى تغييـــر بنيتهـــا بالزيـــادة أو الـــنقص، مســـتقيمة لـــيس فيهـــا تقـــديم أو تـــأخير؛ ويقـــبح إذا اضـــطر الشـــاعر إلـــى ثلـــم الألفـــاظ بإنقـــاص بعـــض حروفـــه؛ أو بالزيـــادة فيـــه ليلتـــئم مـــع العروض ، أو بغير ذلك [12]>>

ولا نكـــاد نغـــادر تربـــة العصـــر العباســـي، حتـــى يفاجئنـــا العصـــر الحـــديث بنمـــاذج أخـــرى مـــن أمثلـــة التضـــافر بـــين النقـــد وعلـــم التـــاريخ، وبينـــه وبـــين علـــم الـــنفس وعلـــم الاجتمـــاع، ثـــم اللســـانيات

التي تعد معرفة صارمة تحول النقد معها إلى شفرات وخطاطات وجداول .

يعد هذا مسحا مختصرا ووجيزا لنماذج من التضافر المعرفي بين حقول المعرفة الإنسانية، وهو ما يدل دلالة واضحة على أن النقد << مطواع إلى المحاورة وإن نقلناه من لغته إلى لغة غير لغته [13]>>لنجد هذه الظاهرة بارزة بشكل معمق في مؤلفات الناقد محمد مفتاح ، الذي استعان بمفاهيم ونظريات في علم البيولوجيا، والفيزياء، والموسيقى، والذكاء الاصطناعي، وعلم النفس المعرفي...لتطعيم خطابه النقدي. لهذا، لا يمكن بحال من الأحوال فحص التجربة النقدية لمحمد مفتاح إلا بمعرفة الخلفيات المعرفية والمرجعيات الفكرية التي يتكئ عليها خطابه النقدي. فلا غرو بعد هذا أن نتساءل عن مشروعية حضور المفاهيم والنظريات العلمية في مدونة تدرس الخطاب الأدبي.

إن المتتبع لفكر محمد مفتاح يسجل أن كتاباته<< لا تنحو منحى أحاديا؛ فقد تناولت الخطاب الشعري والسردي والموسيقي والفلسفي والتاريخي ، واستمدت مرجعيتها من أطر نظرية متعددة مثل: اللسانيات والسيميائيات والتداوليات والذكاء الاصطناعي وعلم النفس المعرفي والمنطق المتدرج، وانفتحت على الدراسات الرياضية والبيلوجية والذكاء الاصطناعي. وهذا التعدد في المرجعيات بقدر ما يغني فإنه يربك المتلقي الباحث عن خطية المفاهيم، وخطية معالجة الظواهر، وسلطة المرجعية الواحدة والرأي الواحد، كما أنه يجعل التساؤل عن مدى

حضـــور المشـــروع الفكـــري فـــي كتابـــات تـــدرس الخطـــاب الأدبـــي الخالص تساؤلا مشروعا [14]>>

إن مـــا جعـــل المســـتحيل ممكنـــا ومتحققـــا هـــو مشـــروع المقايســـة بـــين العلـــوم الـــذي حفـــل بـــه محمد مفتـــاح ونخالـــه مكمـــلا لمشـــروع التضـــافرومتجـــاوزا لـــه . ولســـنا هاهنـــا فـــي موضـــع المقارنـــة بـــين التضـــافروالمقايســـة، إلا أن المقايســـة فـــي عـــرف محمد مفتـــاح تتجـــاوز حقـــل العلـــوم الإنســـانية إلـــى العلـــوم الطبيعيـــة، محـــاولا إيجـــاد تقاطعـــات معرفيـــة بـــين النقـــد وغيـــره مـــن العلـــوم الطبيعيـــة كعلـــم البيولوجيـــا، والفيزيـــاء، والمنطـــق، والـــذكاء الاصـــطناعي محـــاولا إرســـاء نظريـــة شـــعرية موســـعة تســـتمد مرجعياتهـــا وخطابهـــا المفـــاهيمي مـــن شـــتى العلـــوم والمعـــارف الإنســـانية والعلميـــة. فهـــل مـــن ســـبيل إلـــى وصـــال بـــين الأدبـــي/ الجمـــالي/ الخيالي/الـــذاتي/ النســـبي ... والعلمـــي/ الموضـــوعي/ المـــادي/ اليقينـــي...؟ هـــل بالإمكـــان تبـــادل المفـــاهيم والنظريـــات فـــي العمليـــة المعرفيـــة كمـــا تتبـــادل الســـلع والبضـــائع فـــي العمليـــة الاقتصـــادية علمـــا أن المفـــاهيم وليـــدة ســـياقات معرفيـــة وتاريخيـــة وثقافيـــة لا يمكـــن بحـــال مـــن الأحـــوال إغفالهـــا ونحـــن نتبنـــى مشـــروع المقايســـة ؟ ثـــم إن النظريـــات العلميـــة تخضـــع بـــدورها للنقـــد الـــذي يكشـــف ثغراتهـــا. فكيـــف الســـبيل – فـــي هـــذه الحـــال – إلـــى إحـــلال مبـــدأ المقايســـة بـــين النظريـــة النقديـــة وفـــروع العلـــوم؟ إن الخطـــاب الأدبـــي يملـــك خصوصـــيته التـــي تختلـــف إن قلـــيلا أوكثيـــرا عـــن غيـــره مـــن ميـــادين المعرفـــة. لهـــذا فـــإن أي محاولـــة للمقايســـة ستعصـــف لا محالـــة بخصوصـــية نـــص الأدب. هـــل إلـــى ســـبيل لنظريـــة شـــعرية موســـعة أم أنـــه لا يعـــدو أن

يكـــون شـــعارا فضفاضـــا، وترفـــا علميـــا وثقافيـــا لـــيس إلا ؟ هـــل نطالـــب محلـــل الخطـــاب الأدبـــي أن يغـــادر حقلـــه ولغتـــه المشـــحونة بالخيـــال والعاطفـــة ونلزمـــه لغـــة الأرقـــام والإحصـــاء...؟ أخيـــرا مـــا هـــي شروط المقايسة؟

يتبنـــى محمد مفتـــاح فـــي عديـــد مؤلفاتـــه مشـــروع المقايســـة بـــين العلـــوم. والمقايســـة في معناهـــا اللغـــوي مـــأخوذة مـــن الجـــذر الثلاثـــي (ق.ي.س) ويعنـــي التقـــدير علـــى المثـــال أو علـــى غيـــر مثـــال؛ منـــه قايســـت بـــين شـــيئين إذا قـــادرت بينهمـــا. وهـــذا التحديـــد يفتـــرض أن المقايســـة قـــد تشـــترط مثـــالا يقـــاس عليـــه، كمـــا تحتمـــل أيضـــا لا وجـــود أصـــل أو مثـــال[15] يقـــاس عليـــه. تعنـــي << اتخـــاذ علـــم مـــا أعلـــى يقـــاس عليـــه علـــم ناشـــئ[16]>> مـــن مبـــدأ أن << كـــل شـــيء يشـــبه كـــل شـــيء بجهـــة مـــن الجهـــات لا مـــن كـــل الجهـــات[17]>> وتتحـــدد غايـــة المقايســـة فـــي كونهـــا الســـبيل إلـــى إدراك المجهـــول بقياســـه علـــى المعلـــوم ف<<الـــذهن البشـــري والحيـــواني يســـعى جاهـــدا إلـــى البحـــث عـــن المتمـــاثلات والمختلفـــات ...حـــلا لمشـــاكله وضـــمانا لحياتـــه ومنجاتـــه فـــي هـــذا الكـــون[18]>> إذن فمـــا هـــي الإشـــكالات التـــي يفرضـــها حقـــل تحليـــل الخطاب حتى نعلن المقايسة حلا لها.

وعليـــه فالمقايســـة تنفـــي القطيعـــة والأفضـــلية بـــين أجنـــاس المعرفـــة. ومـــا توظيـــف البـــاحثين فـــي التحليـــل اللســـاني والأدبـــي لمفـــاهيم مـــن قبيـــل << النـــواة، والخليـــة، والنســـيج والتوالـــد، والتناســـل، والانتظـــام، والانقســـام[19]>> إلا دليـــل واضـــح علـــى فاعليـــة المقايســـة.لأن هـــذه المفـــاهيم- وغيرهـــا كثيـــر- هـــي مـــن بنـــات علـــم

البيولوجيا وتم استجلابها إلى محضن حقل مغاير، حتى غدت أصلا أصيلا فيه. تتداول بين المشتغلين في حقل الدراسات اللسانية والأدبية تداولا منسجما ومتناغما.

لهذا، يعمل المشروع الفكري لمحمد مفتاح على بحث التقاطعات المعرفية والمبادئ المشتركة <<بين الشيء الفيزيائي، وبين الجسم البشري، وبين النص الأدبي [20]>> لأن تخوم النص لا تقف عند حد بعينه أو خطاب بعينه. كما أن حركية الإبداع تعرف انفجارا واسعا حتى غدا الحديث عن موضوع المثاقفة وبلاغة العمى من أعمق القضايا التي لفظها الدرس النقدي المعاصر. فالنص نصوص تتحاور وتتثاقف وتتعايش متجاوزة حدود الهوية وتصنيفات الزمان واعتبارات المكن ونظرية الأجناس. ف- << توسيع حركات التفاعل النصي وانعتاقها من أسر التشكيل المسبق ومن المحددات المعيارية. والإسهام في خلق كيانات فنية متكاملة من مواد ثقافية متنوعة ومتنافرة وغريبة عن بعضها. تأخذ من تعدد الأجناس الخطابية شفرات أبنيتها فتتشاكل وتتعايش داخل تكوين نصي يحفل بالتراكيب المعقدة والمتداخلة [21]>> - أسهم في تحرر النص وارتياده عوالم المجهول، فكان لزاما على النظرية النقدية أن تواكب الكتابة الإبداعية الجديدة.لهذا، لا غرو أن يرتاد محلل الخطاب الأدبي عوالم النظريات في شتى العلوم والمعارف، لأن النص يتشكل من جماع مستويات عديدة؛ المستوى الطبيعي/ الحسي الممثل فيما تسمعه الأذن من أصوات، المستوى الإدراكي الممثل في نتاج فعل التلفظ ونعني بها مختلف الرسائل التي يحرص النص على

تفعيلهـــا كـــأن تكـــون جماليـــة، دينيـــة، اجتماعيـــة...وحتى تتحـــول الوظيفـــة الحســـية إلـى تمـــثلات ذهنيـــة لا بـــد مـــن عمليـــات بيولوجيـــة ونفســـية وفيزيائيـــة معقـــدة يمـــربهـــا مـــتلفظ للـــنص . وعليـــه فـــالنص نتـــاج عمليـــات ظـــاهرة وباطنـــة ، نفســـية وذهنيـــة معقـــدة. ويختصـــر عبـــد الســـلام المســـدي المخـــاض الـــذي عرفتـــه الحركـــة الإبداعيـــة ومعهـــا النقديـــة في قولـــه:<< مـــن قبـــل كانـــت المعرفـــة التـــي يتســـلح بهـــا القـــارئ لـــيحكم علـــى الإنتـــاج النقـــدي قائمـــة داخـــل حضـــيرة الأدب ثـــم داخـــل المواضـــعات النقديـــة الســـائدة، فـــالأدب والعلـــم المتصـــل بـــه كانـــا يكونـــان مؤسســـة متماســـكة قـــد تتواصـــل مـــع مؤسســـات عرفيـــة أخـــرى، ولكـــن ذلـــك مـــن بـــاب المكمـــلات إن لـــم نقـــل مـــن بـــاب التـــرف العلمـــي أو علـــى ســـبيل البـــذخ الثقـــافي. أمـــا الآن فـــالحروف الأولـــى لأبجديـــة النقـــد وافـــدة مـــن خـــارج دائـــرة الأدب والنقـــد...كل ذلـــك يعنـــي الاقتنـــاع بـــأن مؤسســـة النقـــد قـــد خرجـــت عـــن مـــدار فلكهـــا المـــوروث، وكفـــت عـــن كونهـــا ملكـــا عينيـــا بيـــد النقـــاد مـــن حيـــث هـــم نقـــاد ودخلـــت طـــورا جديـــدا هـــي فيـــه ملـــك مشـــاع بـــين النقـــاد وشـــركائهم المعـــرفيين. لقـــد ولـــى فيـــه العهـــد الـــذي كـــان فيـــه الحكـــم علـــى النقـــد ظهيـــر الحكـــم علـــى الأدب. لـــم يعـــد أي منهمـــا بقـــادر علـــى أن يستقل بنفسه عن حركة المعارف [22]>>

إننـــا ولا شـــك << نعـــيش لحظـــة تاريخيـــة مخصوصـــة هـــي لحظـــة انفجـــار النظريـــة النقديـــة... بـــالمعنى الـــذي يكـــاد أن يكـــون حقيقـــة لا مجـــازا[23]>> لهـــذا، يعـــد العصـــر المعاصـــر العصـــر الـــذهبي للنقـــد ، إذ عـــرف << نقلـــة بـــاهرة في هـــذه المرحلـــة العصـــرية أنجزهـــا نقـــاد مهـــرة جـــاءوا إلـــى الأدب مـــن تخصصـــات أخـــر فـــأغنوا التجربـــة النقديـــة بمـــا

حملـــوه إليهـــا مـــن نظريـــات نفســـية واجتماعيـــة وفلســـفية حديثـــة. ويتنـــوع إســـهام هـــؤلاء مـــن واحـــد إلـى آخـــر لتتضـــافر جهـــودهم في بنـــاء النظرية وتوجيهها [24]>>

العقل في أي ثقافة عقلان بتصنيف لالاند، عقل سابق متعالي تشكل عبر سيرورة زمنية متعاقبة سماه لالاند العقل المكوَّن La Raison Constituée ويشمل مجموع النظم والقواعد المنتجة والجاهزة. أما العقل المكوِّنLa Constituante Raison فهو عقل مبدع خلاق وظيفته العمل على إبداع نظم ثقافية جديدة.والعلاقة بينهما تأثيرية تأثرية، ذلك أن العقل المكوَّن كان في لحظة ما عقلا مكوِّنا، لكنه بفعل الزمن استقر عقلا مكوَّنا، كما أن العقل المكوِّن سيتحول بدوره بعد مدة إلى عقل مكوَّن.فكل ثقافة تحمل نظما ثابتة وأخرى متغيرة، وعليه فأي ثقافة تصدر عن عقل كلي جامع وناظم لمجموع العقول، إلا أن الأمر مختلف إذا تجاوزنا سياج الثقافة الواحدة إلى غيرها من الثقافات، فلا يمكننا الحديث عن عقل عقل كلي واحد ووحيد تصدر عنه جميع الثقافات الإنسانية << الشيء الذي يخفف من الاعتراض القائل بكلية العقل أو كونيته. فالعقل كوني ومبادئه كلية وضرورية...نعم .ولكن فقط داخل ثقافة معينة أو أنماط ثقافية متشابهة>>

<u>نموذج المقايسة ، حركية النص الأدبي</u>

عنيـــت العلـــوم الفيزيائيـــة والكيماويـــة والفيزيولوجيـــة... قـــديما وحـــديثا بمبـــادئ الحركـــة والســـكون ،فهـــل يمكننـــا الحـــديث عـــن تحـــرك الـــنص فـــي ميـــدان تحليـــل الخطـــاب؟ هـــل يمكننـــا صـــياغة

نظريــة تحكــم الــنص الأدبــي علــى أســس ومبــادئ قــارة فــي علــم الفيزيــاء.؟ << يعنــي التحــرك التطــور والثــورة والكارثــة المؤديــة إلــى الفوضــى والعمــاء والســديم، كمــا يعنــي الانتظــام الــذاتي والاســترجاع والتــوازن وفتــرات الراحــة ، لأنــه يســتلزم وجــود مفهــوم التسكن أيضا [25]>>

إن مــن نتــائج التحــرك التجــدد' والتغيــر' الــدائم مــن حالــة إلــى أخــرى، والمتأمــل فــي الحركــة الإبداعيــة يجــدها تخضــع لمبــدأ الحركــة حينــا والثبــات حينــا آخر.فــالنص الأدبــي فــي صــيرورته / حركتــه التاريخيــة تقلــب مــن حالــة إلــى أخــرى. إن علــى مســتوى الشــكل أو المضــمون، فــالنص فــي حركتــه الزمنيــة تطــور وثــار علــى بنيتــه الســابقة معنــى ومبنــى، وكــل ثــورة ينجــر عنهــا فوضــى وعمــاء، لكــن هــذه الفوضــى تــركن بعــد حــين إلــى الثبــات بعــد أن تصــبح بــدورها نظامــا. إذن فــالنص بــدوره يخضــع لمبــدأ الحركــة شــأنه شــأن أشــياء العــالم.وهو في حركتــه متغيــر، متجــدد. وعليــه، يمكــن دراســة حركــة الــنص وتفاعلاتــه مــع نصــوص أخــرى بقياســها علــى حركــة المــواد الفيزيائيــة وتفاعــل بعضــها مــع بعــض. وتفاعــل الــنص مــع نفسه ومع غيره من النصوص يؤدي إلى تشعبه.

يزخــر الخطــاب النقــدي المعاصــر بنظــام مفــاهيمي معقــد، لا يتــأتى للقــارئ البســيط فــك شــفراته، وهــذا راجــع لعمليــة المقايســة التــي تعقــد بــين النقــد وفــروع المعرفــة الأخــرى، فتشــيع مصــطلحات مــن قبيــل؛ التفاعــل التشــعب، العمــاء، التشــاكل، الاتســاق، الانســجام ، التوالــد، التناســل،الخلية، النــواة...والتي لا قبــل

للقارئ على فهمها إلا بالرجوع إلى مرجعياتها الفكرية ، وقد كان هذا حال الخطاب النقدي عند محمد مفتاح.

إن الجهاز المفاهيمي لمحمد مفتاح ثري حد الترف الفكري، فقد استطاع – بفعل المقايسة- تطويع المفاهيم والنظريات العلمية لخدمة ميدان تحليل الخطاب الأدبي، وهذا الفعل<< يساهم في تقريب النقد والتنظير من حقول المعرفة، بدءا من استعمال مصطلحاتها – وإن تم تعديل المفاهيم المرتبطة بها وتشويهها- فمجرد استعمال مصطلح ((العضوية)) أو ((النمو)) أو ((التطور)) يشير مباشرة إلى حقل البيولوجيا، واستعمال مصطلح ((اللاشعورية)) أو ((الكبت)) يشير إلى حقل علم النفس. ومثل هذه المصطلحات وغيرها يبقى حاملا لمعرفة لصيقة بالنظريات والمعارف العلمية الأصلية ، لكن الاستعمال النقدي يخرجها من حيزها الضيق ويوسع حدودها إلى درجة الالتباس ، عبر التعميم وتكسير الحدود المخصصة لها، فتصير – بمعنى ما – مفاهيم نقدية ، أو مفاهيم ثقافية [26]>>

بالإضافة إلى هذه المكتسبات، نجد النقد اكتسب صفة العلمية، وتخلت المفاهيم عن صفة الذاتية التي صبغت النقد ردحا من الزمن. ولا يعزب على مشتغل في حقل المعرفة الإنسانية ما للمصطلحات والمفاهيم من دور في نجاح العملية المعرفية بين المشتغلين في الحقل المعرفي الواحد.فالمصطلحات عتبات البيوت المعرفية، فعبرها نلج صرح الحقول المعرفية، ونكشف عن كنه هذا الحقل أو ذلك، وعبرها تنماز الحقول

المعرفية بعضها عن بعض. وفي ذلك يقول عبد السلام المسدي:<< بين العلم والمصطلح لحاما هو كالتماهي الذي يقوم بين الدال والمدلول في المسلمات اللغوية الأولى، فكل حديث عن الدال منفصلا عن مدلوله، وكل حديث عن المدلول في معزل عما يدلنا عليه، بل كل حديث عن علاقة الدوال بمدلولاتها إنما ينطوي على فصل بين المتلاحمات [27]>>

تكفل المقايسة << التناول الشمولي الذي يبدأ من الكل إلى الجزء، أو من الجزء إلى الكل ، أو من نسق الأنساق إلى أصغر نسق، أو من أصغر نسق إلى نسق الأنساق [28]>>وإذا كانت المقايسة مشروعة فإنها ولا شك لا تتأتى للجميع، فليست المقايسة مجرد استجلاب واستعارة للمفاهيم. إنها مخاض عسير تتطلب الوعي المنهجي بالمرجعيات، والقدرة على تطويع المصطلحات وجعلها خادمة للنقد. أما إذا تحولت إلى فعل عشوائي، فإنها تطرح إشكالات حرجة أولها اللبس والغموض.

والمقايسة مشروعة في حقل تحليل الخطاب شريطة أن لا يفقد هذا الحقل المعرفي خصوصيته التي تميزه عن باقي حقول المعرفة الإنسانية.

<u>فلسفة انتظام الكون . النسق الخفي لمشروع المقايسة.</u>

والمقايسة عند محمد مفتاح مقاربة تتناسل من فكرة أعمق، وتتصل اتصالا وثيقا بمشروع أكبر هو انتظام الكون، إذ يفترض محمد مفتاح أن الأصل في أشياء العالم الانسجام والانتظام

والتشابه والتشاكل والتماثل. فما يبين مختلفا ومتناقضا هو في الأصل متماثل منسجم.

وقد ناقش الفكر البشري بمختلف فروعه ، ومنذ بداياته قضايا الاتصال والانفصال بين الأنساق التي يصدر عنها الكون فانشطر الفكر البشري القديم قسمين؛ قسم يؤيد فكرة الاتصال بين الأنساق والأنظمة التي تحكم الكون، وآخر يرى أن الأنساق مستقل بعضها عن بعض. ولسنا ها هنا في موضع بسط هذه الأفكار،لأن الحديث فيها متشعب, وما يهمنا هو موقف محمد مفتاح من هذه الإشكالية وكيف أفاد منها في تحقيق الانسجام في مشروعه الفكري.

تبنى محمد مفتاح فلسفة انتظام الكون، ودافع عنها، وشرح مبادئها، وبحث تجلياتها في فكرنا العربي القديم، وقد كانت فلسفة انتظام الكون الخيط الرفيع الذي حكم عقد أفكاره. << تستعمل هذه الفلسفة مفاهيم مثل التشاكل والتطابق والتناسب والتناظروالتناغم والتنافروالتعاطف والتجاذب، وتوظف أوليات التقييس أو التمثيل لتحقيقها وللربط بين ما في العوالم والكون. ذلك أن هذه الفلسفة تسلم بوجود ((شيء ما)) تتوالد منه الموجودات؛ وإذ كانت هذه الموجودات تنتمي إلى ((أب)) واحد ، فإن بينها تشابها واختلافا بالضرورة. وأما إذا افترضت وجود شيء من ((لا شيء)) فإنه يلزم وجود أشياء متباعدة لكن لابد من الوصل بينها حتى يمكن إيجاد سلسلة رابطة ونسب جامع؛ وعليه، فلابد من إنشاء فضاء للتشاكل

والعلاقات لترتيب الموجودات والكائنات مهما كانت طبيعة المسلمة المنطلق منها [29]>>

إن كل ما في الكون من عوالم - علوية وسفلية، كواكب وعناصر، إنسان وحيوان ،نبات وجماد- تتشاكل وتتجاذب وتنسجم.فكل ما في الكون من أنساق وأنظمة تتعالق وتتقاطع وتتداخل.وما يصدق على النسق الأكبر يصدق على النسق الأصغر، ما يعني قيام العلوم على التداخل والتفاعل والتشاكل. لأن مصدرها واحد هو العقل .

لقد كانت فلسفة انتظام الكون نسقا جامعا تناسلت منه باقي الأنساق، فالمقايسة نتيجة حتمية لفلسفة انتظام الكون التي تبناها محمد مفتاح.

خاتمة:

وعودا على بدء، تتجلى لنا أهمية المقايسة في بناء صرح المعرفة الإنسانية عامة والمعرفة النقدية خاصة. فعلى محلل الخطاب أن يكون ذا بصيرة نافذة بحيث يعمل على تجديد مباحث النقد وتحديث آلياته وإثراء جهازه المفاهيمي بما يتماشى وعلوم العصر. مع الحرص على الوعي بالمرجعيات وتفادي الوقوع في فخ الاستلاب .

النقد مجال خصب للحوار/ التضافر ، وإذا كان هذا الحوار في العهد الأول مجرد عملية بسيطة ونتاج ثقافة موسوعية للناقد ، فإنه اليوم فعل خلاق، مبدع << إنه نسق منهجي ذو

قواعد في أساسياته لأنه ينطلق من تخاصب الثقافتين ويرمي إلى توظيف إحداهما خدمة للأخرى [30]>>

تعد كتب محمد مفتاح مثال التضافر المعرفي بامتياز، ويعد الجهاز المفاهيمي الذي زخرت به مدونات محمد مفتاح ثمرة هذا التضافر، لهذا تعد هذه البوابة أرضا خصبة للبحث.

آن للعلوم الإنسانية اليوم أن تدخل الفردوس الذي ظلت ردحا من الزمن تخشى دخوله. وإذا كان ذلك كذلك، فإن محلل الخطاب مطالب بأن يكون حلقة فعالة وفاعلة في سلسلة العقد المعرفي المعاصر.

الهوامش:

[1]- محمد مفتاح: دينامية النص (تنظير وإنجاز) ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء/ بيروت، ط 4، 2010، ص 08.

[2] - عبد السلام بنعبد العالي: ميثولوجيا الواقع، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء/ المغرب، ط1999،1، ص ص 21،22.

[3]- محمد مفتاح: المفاهيم معالم نحو تأويل واقعي، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء/ بيروت، ط 2، 2010، ص 16

[4]- عبد الغني بارة: إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النقدي العربي المعاصر. مقاربة حوارية في الأصول المعرفية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2005، ص 326،نقلا عن Jean Dubois et autres: Dictionnaire de linguistique; p 486

[5]- محمد مفتاح: النص من القراءة إلى التنظير، شركة النشر والتوزيع- المدارس- / الدار البيضاء، ط1، 1999، ص ص 09،10.

[6]- محمد مفتاح: مفاهيم موسعة لنظرية شعرية اللغة- الموسيقى- الحركة ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/ بيروت، ط1، 2010، ج 1 مبادئ ومسارات، ص ص 19،20.

[7]- المصدر نفسه ، ص 19.

[8]- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[9]- ينظر: عبد السلام المسدي: الأدب وخطاب النقد، دار الكتب الوطنية، ليبيا، ط1، 2004،ص ص 16- 28.

[10]- طه أحمد إبراهيم: تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، دار الكتب العلمية، بيروت، ص 107.

[11]- المرجع نفسه، ص 124.

[12]- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[13]- عبد السلام المسدي: الأدب وخطاب النقد، ص 27.

[14]- عبد اللطيف محفوظ، جمال بندحمان وآخرون: محمد مفتاح المشروع النقدي المفتوح. السميائيات، التداوليات، منشورات الاختلاف/ الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر/ لبنان، ط1، 1430هـ- 2009م، ص 19.

[15]- محمد مفتاح: الشعر وتناغم الكون التخييل الموسيقى المحبة، شركة النشر والتوزيع- المدارس، الدار البيضاء، ط1، 1423هـ-2002م، ص 30.

[16]- محمد مفتاح: مفاهيم موسعة لنظرية شعرية اللغة- الموسيقى- الحركة: ج 1 مبادئ ومسارات ،ص 65.

[17]- المصدر نفسه : ص

[18]- محمد مفتاح: الشعر وتناغم الكون التخييل الموسيقى المحبة، ص 29.

[19]- المصدر نفسه : ص 64.

[20]- المصدر نفسه، ص 66.

[21]- الطاهر روابنية: (المثاقفة وبلاغة العماء)، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية ، جامعة فرحات عباس، سطيف/ الجزائر، ع 9، 2009، ص 21.

[22]- عبد السلام المسدي: الأدب وخطاب النقد،ص 12

[23]- المرجع نفسه، ص 09.

[24]- عبد الله الغذامي : الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية قراءة نقدية لنموذج معاصر،الهيئة المصرية العامة للكتاب،مصر، ط4، 1998. ، ص 65.

[25]- محمد مفتاح: مفاهيم موسعة لنظرية شعرية اللغة- الموسيقى- الحركة، ج 1 مبادئ ومسارات، ص 60.

[26]- محمد الدغمومي: نقد النقد وتنظير النقد العربي المعاصر، منشورات كلية الآداب/ الرباط، مطبعة النجاح الجديدة/ الدار البيضاء، ط1، 1999، ص 20.

[27]- عبد السلام المسدي: المصطلح النقدي ، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله للنشر والتوزيع، تونس، 1994، ص 11.

[28]- محمد مفتاح: مفاهيم موسعة لنظرية شعرية اللغة- الموسيقى- الحركة، ج 1 مبادئ ومسارات، ص 52.

[29]- محمد مفتاح: رؤيا التماثل مقالة في البنيات العميقة ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء/ المغرب، بيروت/ لبنان، ط1، 2005، ص 16.

[30]- عبد السلام المسدي: الأدب وخطاب النقد، ص 15.